علماء العرب

١٧

الجاحظ

عالم الحيوان

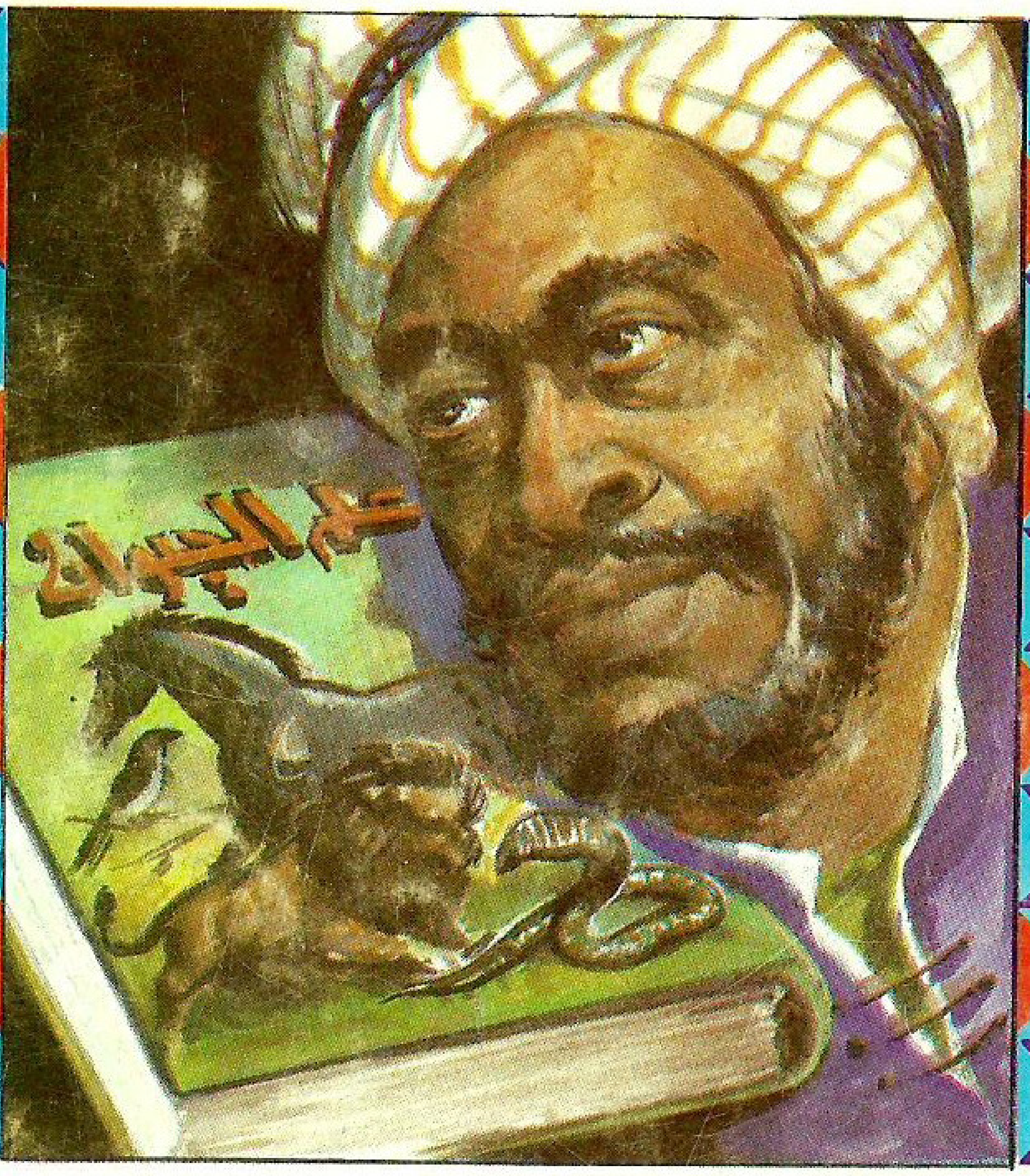

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام

مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب

الجاحظ

عالم الحيوان

عبد الهادي الحبشي

سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م
جميع حقوق الطبع محفوظة
الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يو ان

ابنُ الجمّال

غادَرَ الصبىُّ « عمرُو بنُ بحْرٍ بن محبُوب » الكتّاب الذِى يحفَظُ فِيهِ كِتَابَ اللّه . ومشَى عائِداً على طَرِيقِ سُوقِ « المِرْبَد » ، إلى حىٍّ « كِنانَة » الفقِيرِ ، الذى يسكُن فيه ، بمدينةِ البَصْرَةِ .

كان « عَمْرو » فى السّابعةِ من عُمرِه ، وكانَ أسودَ اللّونِ ، بارزَ الجَبهةِ ، جَاحِظَ العينين ، أفْطَس الأنْفِ ، عَريضَه .

وجد « عمرٌو » أمّه قد عادتْ من السّوقِ ، وقد باعت ما شَوَتْه من أسْمَاكِ نَهْرِ شَطِّ الْعَرب ، وما صَنَعَتْه من الحلْوَى ، وجلَس « عمرُو » حزيناً ، وقالَ لأمه :

ــ الأوْلادُ فى الكُتّاب يزْعُمون أنّ أبى كَانَ زِنجيًا من افريقيّة .

فضَحِكَتِ الأمّ ، وقالَتْ له :

ــ يابُنَىّ . كُلُّنا مُسْلِمون . وقد سَاوى الإسلامُ بين العَرب وغيْرِ العَرب ، فالْكُلّ يَحمِلُ عَقْلاً وقَلْباً . والله يحاسِبُنا على أعْمالِنا وحدَها .

وسكتَتْ أمّهُ لَحظةً ، ثم قالت :

ــ أبوك يا بُنَىّ وُلِدَ هُنا ، فى البَصْرة ، ونَشأ عَربىّ اللّسانِ (اللغة) والقَلبِ ، وكان يعْمَلُ جَمّالاً لِسيِّدٍ من سَادَاتِ

العربِ ، هو « عَمْرُو بنُ قَلعٍ » وكان عمرٌو رجُلاً صالحا ، « رحيماً » ولِذَلِكَ سَمّاك أبوكَ بِاسْمِه : « عَمْرو » . ولْتَذكُرْ دائماً أنّ أباك ينتسِبُ إلى بَنِى فَزارَةَ . هكَذَا أكّدَ لِى .

وحاوَلَ « عمرُو » أن يَتذكّر شَكْلَ أبيه ، فلَمْ يذكُرْ لَهُ وَجْها ، فقد وَدّعَ الدُّنيا ، وتَرَكَهُ طِفلاً صغِيراً ، يعِيشُ مع أمّهِ وأخيهِ ، فى هذَا البيْتِ المتواضِعِ من الخَشَب والطِّين .

وتناوَل « عمرٌو » غذاءَه ، ثم غادَر الْبيْتَ إلى الْخارِج ، لِيلْعَبَ مَعَ أبْناءِ الْحىِّ ، بَيْنَ مِياهِ النُّهَيْراتِ والْجَداوِلِ ، التى تشُقُّ مَدِينَةَ البَصْرَة .

صديق الحيوانات

رأى « عَمرو » أبْنَاءَ الْحىِّ ، يَجْرُون أمامَ كَلْبٍ هَائِجٍ ، يعْوِى نابحاً ، ويُطارِدُ الأوْلادَ ، والأوْلادَ يرمُونه بالأحْجارِ . ورَأى صَاحِبَه « مَهْدِى » واقِفاً لا ينْتبه إلى هِياجِ الْكَلْب ، وتوجّهه نحْوَه . فصَاح بِهِ « عَمْرو » مُحَذِّراً . لكنّ الْكَلْبَ كَانَ قَدْ وَثَبَ على « مهدِى » وعضّه أسْفَلَ عَيْنِهِ اليُسْرَى ، ومَزّق

خدَّه بأنْيابه .

وأسْرَع « عمرٌو » إلَى صَاحِبه ، وحَاوَل أن يُوقِف بيدِه دِمَاءَه الغزيرَة ، إلى أنْ جاءَ أبُوه مَعَ طَبِيبٍ من البَصْرَةِ لإسْعَافِه .

وعادَ « عمرٌو » إلَى البَيْتِ ، فحذَّرَتْه أمُّه من إغْضَابِ الْحَيوان ، والْوُقوف فى وجهِهِ عنْدَ غضَبِه ، فليْسَ لهُ عقل مِثْل الإنْسَانِ ، يُرشِدُه إلى فِعْلِ الصّوَابِ .

عند العصر ، ظلَّ « عَمْرٌو » يرقُبُ سُلْحُفَاةً كانَتْ لَه ، تَحبُو على مَهَل فى سَاحَةِ الْبَيْتِ ، وفأراً يخرُجُ من جُحْرٍ بالجِدَارِ ، ويقْفِزُ هُنَا وهُنَاك ، وثُعْبَاناً يُطِلُّ برأْسِه ، من ثُقْبٍ فى جِدَارٍ خَلْفِيٍّ للبَيْتِ . ووَرَاءَ الجدَارِ ، كانَ مُسْتَنْقَعُ سَاكِنُ الْمِيَاه ، عَطِنٌ (كريه) الرائحة . وقَلِقَ « عَمْرو » على سُلْحفَاته ، خَائِفاً عليْهاَ من الثُّعْبَان ، فنبه أمّهُ من غَفْوتِها (نومتها الخفيفة) وأرَاها الثّعْبَانَ ، وكَانَتْ عَيْنَاهُ تلْمعَانِ . فقالتْ لهُ أمُّه :

ــ لاتخَفْ من هَذَا الثُّعبَان فهو يُرِيدَ اصْطِيَادَ الْفأْرِ ، ولا تَخَفْ على السُّلْحَفاةِ فَسوْفَ تَخْتَفِى فى صَدَفَتِها ، حِينَ

تُحِسّ بالْخَطَر .

كان الوَقْتُ صَيْفاً ، شَدِيدَ الْحَرِّ . وشَاهَدَ عَمْرو الْفَأْر وهو يَخْتَفِى بسُرعةٍ فى الجُحْر ، والسُّلْحفَاة وهى تضُمّ أطرَافها إليها فى صَدَفَتِها ، والثّعبانَ وهو ينصرِفُ عائِداً فى جوْفِ جُحْرِه . وفكّر « عَمْرو » أن عَالَمَ الْحَيَوانِ عَالمٌ عجِيبٌ ، مَلِئٌ بالغرائِب . وكَانَتِ الْأمّ تُفكِّر ، أن ابْنَها « عمْرو » لا همّ له إلا مراقبَة الفراشِ ، والضفادِع ، والحشرات ، والطيور ، ووجوهِ الحيواناتِ ، بل ووجوهِ الناس ، وأحوالِ الناس . ودَهِشَت الأمّ حينَ سَمِعتْ ولَدها يقُولُ لَها :

ــ حِينَ أُتِمّ حِفْظَ الْقُرْآنِ . سَأذْهَبُ إلى مَسجِدِ البَصْرَة ، وأتَعَلّمُ العِلْمَ من شُيُوخِ الْبصْرَةِ .

فقالتْ لهُ أُمُّه :

ــ لا تفكر فى ذلك الآن . ستخرُج مَعِى غداً الجمعة لنبِيعَ معاً الأسْماكَ والسُّكر ، والحَلْوى ، أنْتَ فى مَكَانٍ ، وأنا فى مَكَانٍ ، لِنَرْبحَ مَزِيداً مِنَ المَالِ .

مدينة النخيل

كانتِ البَصْرَةُ آنذاك ، ما تزال مَدينَةً مُشيَّدَةً بالأحْجارِ البيْضاءَ عامِرَةً بالنّخيل ، عَلى الضّفّةِ اليُمْنى من شَطِّ العَرب . وكانَتْ قد صارَتْ ميناءً بَحرياً هامًّا ، على الخليجِ العَربّى ، مثل ميناءَ « سيراف » الفارِسىّ ، تلتَقى حَوْلَها الطّرُقُ البَرّيةِ ، مع الطُّرُقِ الْمائيةِ . وكان « عُقْبَةُ بنُ غزوَان » قد بَناها بَعيدَةً قَليلاً عن النّهْرِ ، فى زَمنِ الْخَليفَةِ « عُمَر بنَ الخطّاب » ، قَبْلَ نَحْوِ من مِائَةٍ وخَمسينَ عاماً . وصارَتِ البَصْرةُ مرْكزاً ثقافيا هاماً ، إلى جانِبِ مدينتَىْ « بغدَادَ » و « الكُوفَةُ » يعِيشُ فِيها الْعَربُ والفُرْسُ ، وقد صَارَ مسجِدُها الجامِعُ ساحَةً لحلْقاتِ العُلومِ اللّغَويّةِ والدّينيّةِ والأدَبيّةِ والْفَلْسفيّةِ ، بفضْلِ شُيُوخٍ عُلماءِ عرفُوا بالمَسْجِدِيّينَ ، وكانت أرضُها ترتفعُ فوْقَ سَطْحِ الْبَحْرِ بمقْدارِ مِتْرَيْن .

وبالقُرْبِ منها كانَتْ مدينة « الزُّبَيْرِ » التى يَرْقُدُ فى ثَراهَا « الزُّبَيْرَ بْنُ العَوام » . وكانَ « عمرٌو » مَفْتُوناً فى صِباه بهذِهِ الْمَدِينَةِ ، يُحِبُّ حَرّهَا الْجافَّ صَيْفاً ، وبَرْدَها الصّحْراوىّ

الْقَارِسَ شِتَاءً ، وينتَظِرُ فى لَهْفَةٍ ، كُلّ شِتَاءٍ ، سُقُوطَ الْمَطَرِ ، من سَحَابَةٍ عَابِرَةٍ .

المال والعلم

عادت أمّ « عَمْرٍو » وحْدَها إلى البيْتِ آخِرَ النهَارِ . وتَخَلَّفَ عنها « عمرٌو » لِيَطْمَئِنَّ عَلَى صدِيقِه « مَهْدِى » . وعَادَ إليْها بعْدَ صَلاةِ العِشَاءِ ، وجَلَس حزيناً ، ثم قالَ ضاحِكاً ، وساخِراً :

ــ فَقَدَ شَيْخُنا فى الكُتّابِ دِرْهماً ، وسوْفَ يَحْزَنُ لذلك ، ويغضَب ، وقَدْ يَخْتَارُ أىَّ أحدٍ لِيَضْرِبَهُ ، لأىِّ سَبَب .

ونظَرَتْ إليْهِ أُمُّه مُسْتَغْرِبَةً ، فقالَ لها « عمرٌو » ، بحُزْنٍ » :

ــ صَاحِبى « إبراهيم بنُ سيّار » ، عَادَ مع أهْلِه الَى مَدِينَةِ « بلْخ » فى خُراسَان . ولِذلِك لَنْ يأْتِى إلى الكُتّاب ، ولَن يأْخذ شَيْخنا دِرْهَمه الشَّهْرِىَّ من أبِيه ، ويحْزنُ ، ويغْضَبُ ، ويضْرِبُ .

فضَحِكت أُمُّ « عَمْرو » وقَالَتْ :

ــ تذكّرْ إذَنّ أن المالَ هو كُلُّ شَىْءٍ يا عَمْرُو .

فقال عمْرو صائِحاً .

ــ لا . المال ليْسَ كلَّ شَىءٍ . أنا أُحِبّ المال لأعِيش بِه . لكِنَّنى أيْضاً أُحِبّ العِلْمَ .

فقالَتْ له أُمّه بأسَى :

ــ وأيْنَ نَحْنُ من العِلْمِ يابُنَىّ ؟ حَسْبُكَ حِفظ القُرآنِ يا عَمْرُو .

فقالَ عمْرو :

ــ العالِمُ أيْضا يكسَبُ مالاً . والخَليفَةُ يُرَتِّبُ رَواتِبَ شَهْرِيّة لِلْعُلماءِ ، والعُلماءُ يُؤَلّفونَ كُتباً ، فَينالُون عنْها مالاً . وسوْفَ أصِلُ إلى الاثنين .

صديق غنّى

أَتَمّ « عمرٌو » حِفظَ الْقُرآنَ ، واعْتَادَ أنْ يَذْهَبَ مَعَ أُمِّهِ فى كُلّ صَباحٍ ، لِيَبيعَ مَعَهَا السَّمَكَ والسُّكَّرَ والْحلوى . ثم

يُسْرِع ، مَعَ الْعَصْرِ ، إلى مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ ، ويَجْلس فى حَلْقَةٍ مِنْ حَلْقَاتِ الْعِلْمِ ، يَسْتَمِعُ إلَى شَيْخٍ مِن شيوخِ اللُّغَةِ ، ويكتُبُ ما يسمَعُه ، ثم يعودُ إلى البَيْتِ رَاضياً ، فتضُمّه أُمُّه إليْها ، وتُغَنّى لهُ حتى يَنام . وعندئِذٍ يَخرُجُ الثُّعْبانُ من شِقِّ الجِدار ، والفأرُ من الجُحْرِ ، وتَسْحَبُ السُّلحفاة أطْرافَها إلى صَدَفتِها ، وتُطْفِئُ الأُمّ الْقِنْدِيلَ الْمُضاء .

لكِنّ « عمْراً » لم يعُدْ يذهَبُ مَعَها إلى السُّوق مثْلَما كانَ ، فَفِى المسجدِ الْتقى « عمْرو » ذَاتَ يَوْمٍ بثَرِىٍّ (غَنِىّ) من البَصْرَة ، اسمُه « أَبو عِمْرَانَ » . رَآهُ « أَبو عِمْرَانَ » يَسْأَلُ العُلَماءَ ، ويُجِيبُ الْعُلَماءَ ، فأُعجِبَ بذكائِهِ فِي السُّؤالِ ، وسُرْعَتِه فى الْجَوابِ ، وجَذَبَته إليْهِ خِفّةُ رُوحِه ، وقُوّةُ حُجّتِهِ (براهِينه وأدِلّته) ، فقالَ لهُ حِينَ انْفَرَدَ بِهِ :

— لَيْتَ مِثْلَكَ كَانَ وَلَدِى يا بُنَىّ . اُطْلُبِ العِلْمَ ما عِشْتَ ، فقَدْ تَصِيرُ يوماً عالِماً قَديراً ، أو كاتِباً نَابِغاً .

وفَرِحَ « عمرو » بما قالَهُ لَهُ « أَبو عِمْرَانَ » ، وصحبَه إلى

بَيْتِه . وأطعَمَهُ « أبو عِمْرانَ » ، وأعْطاهُ كُتُباً من كُتُبِه . ومُنْذُ ذلكَ اليَوْمِ ، شُغِلَ « عمْرو » بالكُتُبِ عَنِ الذَّهابِ مَعَ أُمِّهِ إلى السُّوق . صَارَ يسْحَبُ كِتاباً مِنها ، ويذْهَبُ ليَقرَأَهُ تَحْتَ أشْجارِ النّخيل ، ورُبّما عند شَطِّ النّهْرِ ، أو مِياهِ الخليج ، ويَعُودُ مَعَ الْعَصْرِ إلى المسْجِدِ ، ليَجْلسَ بيْنَ طُلّاب الْعِلْم . ولذلِكَ حزِنَتْ أُمّ « عمْرو » ، فقَدْ أَخذَتِ الكُتُبُ مِنْها وَلَدَها ، بَعيداً عَنِ السُّوقِ . وقَرّرَتْ أُمُّهُ أن تُعْطِيَهُ دَرساً لا يَنْساه .

كل كتبا

عادَ « عمْرو » مِنَ المسجدِ ذَاتَ لَيْلَة ، وقد اشْتَدَّ جُوعهُ ، وطَلَبَ من أُمّهِ طَعَاماً ، فلَمْ يأكُلْ شيْئاً فى نَهارِهِ كُلّه ، فنهضَتِ الأمّ ، وعَادَتْ إليْهِ بطَبَقٍ كبيرٍ ، عليْهِ كُتُبٌ وكَرارِيس ، ودَهِش « عمْرو » وقالَ لأُمِّه :

— ما هذا ؛ أريد طَعَاماً ، لا كُتُباً .

فقالَتْ لَهُ أُمُّهُ بهُدُوءٍ ، وهى تَجْلِسُ :

— كُلْ كُتُباً . فَهذِه الكُتُبُ هى الّتِي نَكْسَبُها مِنْك .

وَوَقَفَ « عمْرو » ، وغَادَرَ الْبيتَ مُغْتماً (حزينا) . وذهَبَ إلى المسْجِدِ ، فوَجَدَ الشُّيوخَ والطُّلاَّبَ قد غادرُوهُ ، فَجَلَسَ فى الْمسْجِدِ حَزيناً ، شَاحِبَ الْوَجْهِ مِنَ الْجُوعِ . وانْتبَهَ على صَوْتٍ بجَانِبِه ، يقُولُ له :

ــ خيْراً يا عمْرو .

والْتفَتَ « عَمْرو » فَرأَى صدِيقَه « أبو عُمْرانَ » وأَخْبَرَه « عَمْرو » بما فعَلَتْهُ أُمُّهُ معَه . فَصحبَه « أبو عمْرانَ » معَه إلى

بَيْتِه ، وقَدمَّ لهُ طَعَاما فأكَلَه ، وشَبِع ، وقَدّم لهُ كِيساً مِليئاً بالدّنَانِيرِ ، قائِلاً لَهُ :

ــ أشْبعْ أُمَّكَ بهَذَا الْمَالِ . خَمْسُونَ دِيناراً يا عمْرو ، ولَكَ مِثْلَها مِنّى أوّلَ كُلِّ هِلاَلٍ (كل شهر) .

وشهِقَ « عمْرو » وكانتِ الشّمسُ قد أشْرقَت ، فَسَارَع فرِحاً إلَى السّوق واشترى دقِيقاً ، وزَيْتاً ، وتَمْراً ، ولَحْماً ، وعَادَ نحو الْبَيْتِ ، يَتْبعُه الْحمّالُونَ . كانَتِ الأُمّ جالِسةً تَنتظِرُ عوْدة « عَمْرٍو » فى قَلَقٍ ، تَلُومُ نَفْسها ، طَوَال اللّيل ، لقَسْوتِها على وَلَدِها .

ودَفَع « عمْرو » بَابَ الْبَيْت ، ورأَتِ الأُمّ الحَمّالِينَ يدخُلُون ، ويُنزِلُون من عَلَى ظُهُورِهِمْ ما يَحْمِلُونه . فصَاحَتْ فى دَهْشَةٍ :

ــ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذا يا عَمْرو ؟

وشعَر « عمْرو » أنّه قَدْ صَارَ فجأَةً رجُلاً ، فقالَ لها ضاحِكاً :

ــ مِنَ الكُتُبِ التى قَدّمتِها لِى .. فى طَبَق !!

الطريق إلى البحرين

كان « عمْرو » قد بلَغ من العُمْر خمْسَ عشْرَةَ سَنَة ، وقد صَارَ « هارون الرشيدُ » خليفةً . وأغْراهُ راويَةُ المِرْبَد « أبُو جعْفَر الْعَنْبرِىّ » بالسَّفَرِ مَعَهُ إلى الْبَادِيَةِ فى جزيرةِ الْعَرَبِ ، كَىْ يَسْمَعَ أخْبَارَ الْعَرَبِ ، وأسْمَاءَ الْعَرَب ، ولُغَةَ الْعَرَبِ ، من رواةِ الْعَرَب ، وكَىْ يَسْمَعَ أعْرَابَ الْبادِيَةِ ، وهُمْ يحكُون لَهُ عَنْ حَيَاتِهِم ، ما لَم يَكْتُبْهُ أحَد بَعد .

وَوجد « عمْرو » نَفْسَه فى قافِلَةٍ ، مُتَجِهَة صَوْبَ الْجَنُوبِ ، ووجَدَ نَفْسَه وَحِيداً ، لِنُفُورِ المسافِرينَ من شَكْلِه ، وسمِعَهُم يُنَادونَه : يا جَاحِظُ ، لِجحُوظِ عَيْنَيْه ، حتى صَارَ ذَلِكَ النِّدَاءُ لَقَباً لَهُ ، لكن « عمراً » مالَبِثَ أنْ بَهرَهُمْ جميعاً بقُدْرتِه على الْحديث ، والمسامَرة ، والْمُلاطَفَةِ فى الْكَلام ، وكان بَيْنَهُمْ مَشَاهير من مشاهيرِ زَمَانِهم ، من الشُّعَراءِ والرُّوَاةِ ، وأدهَشَهم بإبداء رأيه في أشعارِ الشُّعَراءِ ، والْمُقارَنةِ بَيْنَ مَعَانِى الشُّعَراءِ . وصَاروا يَبْحثُون عنه لِيَجْلِسَ مَعَهُم ، على طَعَامٍ من جُبْنٍ

وبَيْضٍ ، وزَيْتُونٍ ، وتَمْرٍ . وكَسِبَ « عمْرو » وُدَّ الْجَميعِ ، ولم تَكُنِ الْقَافِلَةُ قد بَلغتْ بَعْدُ « بئْرَ الحفير » على بُعْدِ أرْبعة أمْيالٍ من الْبَصْرَةِ .

كانَتِ القافِلَةُ مُتَّجِهَةً إلى أرْضِ البَحْرَيْنْ (بلادُ الخليجِ الْعَربي كلها) . وكانَ الطَرِيقُ مُعْشِباً ، والسَّمَاءُ صَافيةً ، لكِن الحرّ كَانَ شَدِيداً ، وبخَرُ مياهِ الْخليجِ يَزيدُ من رُطوبَة الجوّ علي طُول السَّاحِلِ ، فَتَضِيق مِنها الأنفاسَ . وبلَغَتِ الْقافِلَةُ نِهايَة مَرْحَلة مِن رحْلتِها . وحَاوَل « عمْرو » أن يجمعَ عَبَثاً ، من الْبَدْو ، أخْباراً من أخْبَارِ عرب « طَسَمٍ » « وجَدِيسٍ » الأقْدَمين ، فقد بَادُوا فى الزَّمَنِ الْقَديم ، واندَثَرتْ بعْدَهُم أخْبارُهُم .

وانفَصَل « أبُو جَعْفر الْعَنْبَرِىّ » عن الْقافِلة ، إثْر زِيَارَتِه لِديار قَوْمِهِ فى البحرين عائِداً إلى البصْرةِ ، فبعَثَ معه « عمْرو » برسَائِلَ إلى أُمه ، وأصْدِقائه فى البَصْرةِ ، وإلى صديقهِ « أبى عمرانَ » . وواصَلَ هَوَ رِحْلَتَهُ مع القَافِلَةِ .

وتعرّف إلى شابّ اسمُه « عبدُ الرحمن » كانَ يصحبُ أبَاهُ الأمِير « عبد الملِك بن صَالحٍ » فى تلكَ الرِّحْلَة . كان رجُلاً

عِمْلاَقاً طويلاً ضخماً ، مَهيبَ المَنْظرِ ، كَبيرَ العمامَةِ ، كأنهُ قَائِدُ جَيْش .

وأُعْجِبَ الأمِيرُ بإنْشاءِ « عمرو » للشِّعْرِ وحِكَايَاتِه لِلأخبارِ والنَّوادِرِ وقرر إسْتِضَافَتَه على نَفَقِتِه طَوَالَ رِحْلتِه ، وأعْطَاهُ فَرساً مثلَ فَرَس ابنه « عبد الرحمن » وصارا يتسابقانِ بهما ، ويصيدان من فَوْقِهما ، ظباءً ، وغِزْلاَناً ، وأرانب بَرِّيَّةً .

دنيا البادية

وواصلَت القافِلَةُ رِحْلَتَها عابرةً دِيارَ نَجْدٍ إلى المدينة ومكّة . وفى تِلك الرّحلة ، رأى « عمرٌو » الأمَاكِن التى دَارَتْ بهَا أيّامُ العَرب ، وغزوَاتِ الرسُولِ ، وسَرَايَا الصّحابَة ، ورأى الزّهُور التى تغَنّى بهاَ الشُّعَراءُ ، زُهورَ العَرارِ ، والخُزامَى ، وشَقَائِق النعمانِ . وفَتح « عمرٌو » أُذنَيْه يسمَعُ حكايَاتٍ عن المجانين والعُشّاق ، والمغفّلين والحمقى ، والأذْكِياء والدُهاةِ ، والنُبلاءِ والكُرَماءِ ، واللُّصُوصِ والشُّطَّار ، والحَيوانَاتِ والطُّيُور ، وليعرف أخبار الأقْدمِين ، من قِصصٍ وأساطير وخُرافَات ،

مما تَعيهِ ذاكِرةُ الأعْراب ، عن أهْلِ اليمنِ ونَجْدٍ ، والحِجاز والبَحْرين ، والفُرس والأحْبَاشِ . وكانَ « عمرٌو » يكْتُبُ مُلاَحظَاتِه ، عن كُلِّ ما يَراه ، ويُدَوِّنُ فى أوْرَاقِهِ خَيْرَ مَا يَسْمَعه منْها .

وعَاد « عمرٌو » إلى البصْرَة ، بعد عامين كامِلين ، ويشكُرُ الأميرَ وولدَه ، ويعدهُما بالزِّيَارَةِ فى قَصرِهما الشّامخِ بالبَصْرةِ ، ويُسارِع بالعَوْدَةِ إلى أُمّه وأُخْتِه ، ويَغْسِل عن بَدَنِه غُبَار الأسْفَارِ .

البصرة تتغيّر

وجد « عمْرٌو » البَصْرة وقَدْ تغيّرتْ فى غِيَابه ، والمسجدَ وقَدْ فَقَدَ كَثِيراً من شُيُوخه وعُلمائِه ، فقد شَدُّوا الرِّحالَ إلى بَغْداد ، ليكُونُوا بالقُرْب من الرّشيد والوُزراءِ ، وبَيْن الراحِلينَ كانَ الراوِيةُ « أبُو عُبَيْدَةَ » واللّغوى : « الأصْمعِى » والكَاتِبُ : « سَهْلُ بْنُ هارُون » ووجد أشْعَار « أبِى نُوَاسٍ » تملأ البَصْرَةَ ، يَرْويها لأهْلِ البصْرةِ ، الرّاويان : « الجمّاز » ، « وأبُو هِفّان »

ووجد دُعَاةَ المذاهِبِ الدينيةِ يَتجادَلُون عَنْد صِديقِهِ « أبى عمران » فى مَسائِل علمِ الكَلاَم ، ويَتصدَّى لمناقشتِهم جَميعاً صِديقُه « إبراهِيمُ بنُ سيّار » بعْدَ عودتهِ إلى البصرة ، وقد اشْتُهرَ فى الْبَصرة ، بلقبِ « النّظّام » لأنّ أباهُ كان ينظِمُ الخَرَز عُقُوداً فى البصْرَة .

حيرة عمرو

فى الليْل ، بَدأ الشّتاءُ بهجْمةٍ مُفَاجِئةٍ وُمبكّرةٍ . هَبّتْ رِيحٌ سَرِيعَةٌ اصْطَدَمَتْ بالسُّحُبِ ، فَصبّتْ عَلى البَصْرةِ أمْطاراً غزِيرَةً ، كان « عمْرٌو » قد بَلَغ من العمر ثَمانى عَشْرة سنة ، وباتَ لَيْلَته ساهِراً ، والْقِنْديلُ مُطفأً يُفكّرُ فى غدِه : كيْف يشُقُّ طَريقَهُ فى الْحياَة ، فلَنْ يبْقَى عالةً على « أبى عمران » إلى الأبد ؟ وأىّ دَرْب من دُروبِ الأدَب والعِلْم ، يختارُ أن يَسير فيه ؟ وكانتْ زَخّاتُ (دفعاتِ) المطر تطرُقُ سقُوفَ بُيوت الْبَصرةِ وتسيلُ بها الميازيبُ فى الطرقَاتِ ، وتمنى لو أنّ صديقه « النّظام » لم يُغادِر البَصْرَة الى بَغْداد ، لِكَى يشاوِره فى أمْرِه . ولم يَصِلْ « عمْرٌو » بَعْدُ إلى قرارٍ .

وظل « عمْرو » يحضرُ نَدواتِ الأَدَبِ والعِلم ، فى قصُور آلِ سُلَيْمان ، وأَبى عمران ، والأمير عبدِ الملك ، ويُشارِك فِيهَا بالحُوار والمنَاظَرات ، وبلَغ من شغَفهِ بالقِراءَة أنّهُ كان يُؤَجِّر دَكَاكِين الوراقِين ، ويَظَلّ ساهِراً فيها طَوال اللّيل ، وهى مُغْلَقةُ الْأبْوابِ ، وقد امْتلأ فضاؤها بدُخَانِ القَنادِيل .

وودّع « عمْرٌو » صَدِيقَه « عبد الرحمن » فقد تَولّى أبوه الأَميرُ إمَارة « نطاكية » بالشّام . وشعَر « عمْرٌو » بالفراغ

والوَحْدَة . وظَلّ « عَمْرُو » يَحيا ويعيشُ من رَوَاتِبِه التى ينالُها كُلّ هلال ، من صَديقه « أبى عمران » .

حلم عمرو

كان « عمرو » قد بَلَغ العِشرين من العُمْر ، حين فُجِعَ بوفاةِ صَديقِهِ « أبي عِمْران » ، وأدْرَك عمرٌو أن عَلَيْه أنْ يعُول نَفْسَه ، بالعَوْدَةِ إلى السُّوقِ لِبَيع السَّمَكَ والسُّكّر والحَلْوى مع أُمّه ، أو يَجلِس ليَكْتُبَ ، ويُؤَلِّف كُتباً لَمْ يكْتُبْ مِثْلَها ، قَبْلَه ، أحَدٌ سواه ، يكْتُبُ عن كُلّ ما عَرَفه وسَمِعَه ووعاهُ ، ويتجاوَزُ بما يكتُبُه كِتَابَات : « عبد الحميد الكاتب » و « ابن المُقَفّع » و « سهل بنْ هَارُون » يكتُبُ كتاباتٍ فَرِيدَةٍ ، يعرفُها كُلّ من يقرؤُها لأوّل وهْلَة ، ويقول : هذا هُوَ أُسْلوب الجَاحِظ ، ولا أحَدَ سِوَاه .

وقَبْلَ أنْ يشْرَع « عَمْرٌو » فِيما عزَمَ عَلَيْه ، جاءَه « قُمَامَةُ » رسُول الأَميرِ « عبدِ الملك » يدعُوه لزيارَته فى مَقَرّ إمارته بأنطاكِية (مدينة فى الشام) فأَعَدّ « عمْرٌو » نَفْسَه للسفر ،

ليَرى العِراقَ ، والشَّام ، ومِصْر ، ويكسَبَ المزِيدَ من المعارِفِ عنِ الدُّنيَا ، بما تَرَاهُ العيْنُ ، وتسمعَهُ الأُذنُ .

عالم عجيب

فى بغداد رَأى « عمرو » قُبَّةً خضْراءَ ، فى رأسِها فَارسُ على فَرس مُتوثّبٍ ، تُعرَف بقُبّة « تَاج بغْدَاد » ، ورأى شوارِعَ بغداد مُزْدَحِمةً بأهْلِ بغدادَ ، فى ثيابِهم العباسية السَّوداء ، يركَبُون الحمِيرَ ، والجمال ، والخُيُول ، ويسيرُونَ هانِئِين فى جَوانِبِ الطُّرُقَات . ورأى « قصْرَ الخُلْد » على الشَّاطِئ الغَرْبىّ لنَهرِ دِجْلَة الذى يعيشُ فيه « هارُون الرشيدُ » ورأى قُصُوراً أخرَى تُشَيّدُ للبَرامِكَة ، ومُعسْكَراتِ جُيُوشِ الخُلَفَاءِ بحَى « الرُّصافة » .

واتّجه قُمامَةُ بعَمْرٍو الى دِيَارِ بَكْر فى الشّمالِ ، وكانَتْ عَيْنا عَمرو لا تكُفّانِ عن التَأمُّلِ فيما حَوْلَهُ من طُيُورٍ وحَيَوانَاتٍ ، ويَعْجَبُ لِتلْكَ النِّيرانِ التى تنبعث وحدَها من شُقُوق الأرض ، وينبهِرُ بمشَاهد الثُّلوجِ فى قِمَمِ جبَالٍ شَديدة البردِ ، ويَحارُ فى

مُتَابَعَة أنواعٍ عجيبةَ من الأَسْمَاك ، والكَرَاكِى ، وطُيورِ العُقْبَانِ ، والصُّقُورِ ، والغِرْبانِ ، وحيَوَانَاتِ الْبَرَارِى : الضَّبّ ، والذئبُ ، والظِّرْبَانُ ، والثّعلبُ والخنزيرُ ، وابنُ آوَى ، وتَرُوعُه آثار قديمَةٌ ، لأَقْوام بادَت حَضَارَتهُم ، من الْبَابِلِيّينَ ، والسَّومَرِيِّينِ ، والأَكَادِيِّنَ ، والأَشُورِيِّين ، ويُشَاهِدُ أَلواناً من المعَادِن والأَحْجَارِ الملونة .

وكَانَ « قمامة » يرْقُبُ « عمراً » فى دهْشَة وهو يكتُبُ عمّا يُشَاهِدُه ، أو يسأَلُ النّاسَ عما يراه سُؤَالاً إِثْرَ سُؤَالٍ .

وكان « عمْرو » طوال رحلته مشغول البال ، يحاول أن ينظم قصيدة يمدح بها الأميرَ عبدَ الملك ، ويفكر فى ذلك كثيراً طوَال الليلِ والنهار ، والفرسُ يسيرُ عابراً ديار ما بين النهريْن ، إلى ديارِ الشام .

شاعر فاشل

فى مجلسٍ حاشِدٍ بالأَعْيَانِ والْعُلَمَاءِ والأُدَبَاء ، وقَفَ الجاحِظُ فى قصرِ الإمَارةِ بأَنْطَاكِية ، يُنْشِدُ الْقَصِيدَة التى نَظَمَها وحفِظَها

فى مَدِيحِ الأَمِير عبد الملك ، لكنّ القَصِيدة لم تُعْجِبِ الأَمِير ، ولا أَحَداً مِنَ الحاضِرِين ، فقد لزِم الجميعُ الصَّمْتَ وجَلَسَ عمْرو خَجِلاً ، وقد أَدْرَكَ أَنّه ليْسَ بشاعِر ، ولَنْ يكُونَ شاعراً ، على حُسْنِ إنشادِهِ للشّعْر .

فى تِلْكَ الليْلةِ آثَرَ « عمْرو » أن يكُونَ رَاوِيَةً ، فراحَ يحكِى القِصَصَ والنَّوادِرَ والتُّحَفَ والطَّرَائِفَ ، من مُشَاهَدَاتِه وقِرَاءاته ، فأثَار الإعْجَابَ والدّهْشَةَ فى نُفُوسِ الْحَاضِرِينَ ، وبدا الرضا فى وجْهِ الأَمِير .

وخَرَجَ الأَمِيرُ على رأْسِ جيْشٍ لحرْبِ الرومِ فى آسيا الصغْرَى (تركيا الآن) . وأناب عنْهُ فى غِيَابه ابنه الأَمِير « عبد الرحمن » وشُغِل « عبد الرحمن » عن « عمرٍو » بأُمُورِ الإمارة فى النّهار ، فراحَ يقضِى نهارَهُ بيْنَ الأَسْوَاقِ والبساتِينَ ، وفى الليْل يجلِسُ « عمْرو » و « عبدُ الرحمن » يستمعَان لغناءِ المغنِّياتِ ، وعَزْفِ القِيانِ (العازفات) على الآلاَتِ الوتَرِيّة والنَّقّارات ، من طُبُولٍ ودُفُوفٍ وأَعْوَاد .

وفى إِحْدَى الليالِى راقتْ لعمرٍو فتاةٌ من فتيَاتِ الْقصْر ،

فزوّجها له « عبد الرحمن » ونجح « عمرٌو » بماله وهداياه ، وحلاوةِ حديثِه ، وخِفّةِ رُوحِه ، فى استمالَتِها إليْه ، ورِضاها بِه ، وغادرَ « انطاكيّة » معها ، وجابَا فى رِحْلةٍ طَويلةٍ ، أرْجاءَ الشّامِ ، ودِلْتا النّيلِ . ثمّ عَادا بعدَ عامٍ إلى « انْطَاكِيَّةَ » .

رسالة من البصرة

لم يكد « عمْرو » يصِلُ الى قصْرِ الأميرِ عبد الله ، حتّى وجدَ رِسالةً قادِمةً لتوها من البَصْرة ، ببريد الحَمَامِ الزّاجل . كان صَدِيقُه « مهدى » ، يخبرُه فى رسَالَتِه بوفاةِ أُمِّه ، وزَواج أُخْتِهِ من رجُلٍ فى حَىِّ كِنَانَة ، فسارعَ « عمْرو » بمغادَرَة « انطاكية » تَارِكاً وراءَه زوْجَته ، فى رِعَاية « عبد الرحمن » خوْفاً عليها من مَشاقِّ الطريق ، وقُطّاعِ الطُّرُقِ ، مُخْفياً فى نفسِه شُعُورَه بالعَجْزِ عنِ الإنْفَاقِ عليْها فى البَصْرةِ ، وهِى التى عاشَتْ فى رَفَاهِيةِ (نعيم) قصُورِ الأُمَراء . وجلستْ زَوْجَتُهُ « بدُور » حزينَةً فى القَصرِ ، تَبْكِى حَظّها معه ، وبُعْدَها عَنه .

نجدة الصديق

بلغ « عمْرو » من العُمْر اثنيْنِ وعشرِينَ سَنَةً ، وصارَ يمشِى فى شَوَارِع البَصْرَةِ مرتدِياً جبة سوْدَاءَ ، وعُمَامةً بيْضاء ، مِثْلَ أهْلِ بغدادَ ، وفى قدمَيْه نَعْلانِ غاليتان . وقد صارَتْ لهُ لِحْية مُشَذّبَة ، لا تُخفى أُذُنَيْهِ الصّغيرتَيْنْ .

لم تمضِ سِوَى شهُوُر ، و« عمْرو » لا يزال يحاول الكِتَابة ، حتى وَفَدَ على البصرةِ الأميرُ « عبدُ الرحمن » فى طريقِهِ إلى الحجّ مُصْطَحِباً معهُ زوْجَته « بدُور » وبُهت « عمرو » حينَ عَرَف أنّها فى الشّهْر الأخِير من الحمْل ، وبدَا حائِراً ، فكيف سيعُولها ، هى ومن تَلِدُه ، وأبوابُ الرزْقِ ما تَزَالُ مسدُودةً فى وجْهِه . وفرّجَ عنه « عبدُ الرحمن » مِحْنَتَه فأعْطاهُ ألْفَ دينارٍ ، قائِلاً له :

— دَبّرْ أمرَك الآنَ بهذَا المالِ . وسنُدَبّر لكْ بَيْتاً فسِيحاً يُطِل علَى النّهرِ .

وتَندّر الناسُ فى البصرةِ بزوَاجِ « الجاحظ » لحُسْنِ حَظِّه ، وسُوءِ حظهّا ، ولم يُبالِ عمْرٌو بهم ، فقد كان بزَوْجته سعيداً ،

وُولِدَ له وَلَدُ ، لَكِنَّ اللّهَ اخْتاره إلى جِوارِه بعد شُهُورٍ ، وعندئذ آثرتْ « بدورٌ » فراق « عمْرو » وسافَرتْ فى قافِلَةٍ عائِدَة الى قصْرِ الأَمِير فى « أنطاكِيّة » .

الخديعة لا تدوم

إثْر رحيلِ « بُدُور » تَحدّى « عمْرو » أحزانَ الفراق ، وخوْفَ الفقْرِ ، والْوَجَل (الخوف) من الكِتَابَةِ ، وراحَ يكتُبُ رسَائِلَ فى مَوْضُوعَاتٍ شَتّى ، يحمِلُ أسْلُوبَها بصْمتَه وحْدَه . لكن مَا كتبه لم يلق قَبُولاً لَدَى الوَرّاقِينَ ، لأنه لم يَجد رَوَاجاً بينَ الناس . فأيْنَ اسمُه من أسْماء : ابْنِ المقفّع ، وسهْلِ ابنِ هارون ؟ ومْن يعرِفُ قِيمَةَ الجاحِظِ ، سِوَى صُحْبَته من العُلَماءِ والْأُدَباءِ ؟!

وهدَتْهُ عبقَرِيَّته الى حِيلَةٍ . صَارَ يُعالِجُ كِتَابَاتِهِ التَّالِيَة لتبْدُو قَدِيمَةً بالتُّرَابِ ، والرَّمادِ ووَهجِ النّارِ ، ويُقدمهُا الى الوَرّاقين ، على أنهّا مْن تأليفِ ابْنِ المقفع ، أو سهْلِ بن هارونَ ، ويزعُمُ أنهّا نُسْخَةٌ نادِرَة وفريدة وكتَابَاتٌ مَجْهُولَةٌ،لهذا أو ذاك ، وأنه

عَثَرَ عَلَيْها ، أو اشْتَراها ، خِلاَلَ أسْفارِه فى الْبُلدان . وجَازَ الخِداعُ على الوَراقِينَ ، فاشتروْهَا مِنه بما يرضَاهُ من مال .

لكنّ الخَدِيعَةَ لم تَدُمْ طَويلاً ، فقدْ أنكَرَ « سَهْل بنُ هارون » من بغداد ، نِسْبَةَ ما نُسِبَ إليْه من كِتَابَاتٍ ، وأصبح « الجاحِظ » حديثَ البَصْرة بفعْلته ، بل حَديث العِراقِ بأسْرِه .

واستَنكَرَ الكُلّ ما فعلَهُ ، ثم تَحَوّل الاسْتِنكَارُ إلى إعْجابٍ ببراعَتِه ، والتَمَسُوا لهُ الأعذَارَ لِحاجَتِه لِلمَالِ ، وبَدَا لَهُمْ فى النهايَةِ كاتِباً لا نَظِيرَ له ، وأقْبَلَ الورّاقُونَ عليه يطلبُونَ كتاباته التى استهانُوا بها أوّلَ الأمْر ، عن الشُطَّارِ واللّصُوصِ ، والحَمْقَى والأذْكِيَاءِ ، وراحَ الأُدَبَاءُ يتحدّثُون عن عَجائبِ فنّه فى الكِتَابَة ، والعُلَماءُ يتعجَّبون من غَزارةِ ما فى كُتُبِه من معْلُومَاتٍ ، وطرائِف ونَوادِر ، ومُلاحظاتٍ دقيقَةٍ عن الحياةِ والأحْياء ، وأقْبل على كُتُبِه عامّةُ القارِئين ، لسُهُولَةِ أُسْلُوبه ، ويُسْر ألفاظِه ، وبَساطَةِ صُورِه وتشْبيهاتِه ، ووضُوحِ فكره ، وقُرب مَعانيه ، وسرعَةِ فَهمِه ، وبديعِ استِطْراداتِه إلى الوَرَاء ، وقفزاتِه المجَنّحَةِ فى كُلِّ اتّجاه .

غروب شمس

حين غابَتْ شمسُ القرنِ الميلادِىّ الثّامِنِ ، كان « الجاحظ » قد بلَغَ من العُمْرِ خمسةً وعشْرين عاماً ، وكانَتْ دوْلَةُ الأغالِبة قد اقْتَطَعَت لَهَا مُلْكاً من جِسْمِ الدوْلَةِ العَبّاسِيّة ، فى تُونس وشرْقِىّ الجزائِر ، وكانتِ الدولَةُ الإدريسيّةُ الشيعِيةُ قد بلَغَتْ من العُمْرِ أَحَدَ عَشَرَ عاماً فى المغرب وغربِىّ الجزائِرِ ، ومع ذَلِك كان مُلكُ العَبّاسِيّينَ عريضاً ، وكانتْ امبراطُورِيتهِمْ زاهِرَة ، تَتَصَاغرُ الى جَانِبِها دُوَلُ بَنِى أُمَيّة فى الأنْدُلس ، والأدَارِسة والأغَالبة فى الشَّمال الافرِيقّى ، وكان العربَ قد ارْتَدّوا فى فُتُوحِهم عن القُسطَنْطِينية وجنوب فرنسا ، وكانوا لا يَزالون يُنَاوِشُون بالغَاراتِ سَوَاحِلَ إيطاليَا والبَلْقَان ، وجزَائِر البَحْرِ المتوسِّط .
وكان عُمْران بَغْدَادَ قد اكْتَمَلَ ، بعْدَ إنشائها بثمانٍ وثلاثين سَنَة .

وشروق شمس

وحين أشْرَقتْ شمْسُ القرنْ الميلادىّ التاسِعِ ، كانت الثّقافَةُ والفَلْسَفَةُ الإغريقيةُ قد وجَدت أرضاً خِصْبَةً ، فى شَرْقِ العَالم

الإسْلَامي ، لم تجد مثْلهَا فى الإمبراطُورِيةِ البيزنَطْيّة ، وكذلك كانَ حظّ الثّقافَة والمعَارِف الْأَدبيةِ الفارِسية والهِنْديّة ، والمترجَمة إلى العربيّة ، من الفَهْلَوِيّة والسّنْسكْرِيتِيّة .

وصارَتْ لَدى المسلمِينَ بفضْل المترجمِين ، الكُتُبُ الأُمّهات الأُصول فى تِلْكَ الثّقافاتِ الثّلاثَ . وبفضْلِ هذِه الترجَمات ، ووجدتْ ثقَافَةُ إسْلَامية « دَوْلِيّة » عَربية اللغَة ، إسْلَامية الدّين ، شَارَكَ فِيها العَرب وغَيْرُ الْعَربَ من المسلمين الفرسِ والنّصارى ، مثلمَا كانُوا يُشارِكُون فى الحُكمِ ، وفى حَياةِ المجتمع العَباسى ، وزرَاءَ وعلماء ، وأدباءَ وتجاراً ، وقوّاداً وجنوداً ، ومزارِعِين وحرفيِّين . وفقَدَ العَربُ الخُلّصُ ، طَوالَ نِصْفِ قرن ، ما كَانَ لهُمْ من نُفُوذٍ وسيْطَرَةٍ فى عهْدِ الدوْلَةِ الأمَويّة ، وصارُوا جزءاً من كلٍّ إسلامى كبير .

وكانَ حَصادُ تلكَ الثّقافَاتِ المترجَمةِ ، يَصِلُ إلى الجاحظ بالبَصْرَةِ ، فيقرَؤُها بالعَربيّة التى يُتقِنُها ، ويعرِفُ أسْرارَهَا ، ويتمثّلُها بعقلِه العبقرِيّ الراجحِ .

بين الحذر والجرأة

وتَوافَدَ الأمراءُ ورسُلُ الأُمَرَاء إلى البَصْرَةِ ، يستمِيلُون قَلَمَ « الجاحِظ » لِخدْمَةِ أغْرَاضِهِم السِّيَاسِيّة ، ويعرِضُون عليهِ المناصِبَ والوَظَائِفِ فى بلاطَاتِهم القرِيبَةِ أو النّائِيَة . لكنّ « الجاحِظ » احتاطَ لنفْسِه من مَزَالِقِ السِّياسَة ، والصِّراع بَين الفُرْسِ والْعَرب ، وبينَ الأُمَرَاءِ ، وآثَر أن يكتُبَ لِذَاتِ الكِتَابَة ، ويكتُبَ ما يكتُبُه للنّاسِ ، فلا يَقَع فيما وقَعَ فيه « ابنُ المقفع » ، ويَلْقَى مِثْلَه مصيراً مُحزِناً .

وبهذِه الرّوح ، تجرّأ « الجاحِظ » فكتَبَ كِتَابَه الكبِير : « الإمامة » (الخلافة) لِلْخَاصّةِ والعَامّةِ .

وتجرّأ فكتَبَ آراءَه فى الفرس الذين يزاحِمون العَرَب فى دِيَارِهم ، ويَسْخَرون من فكرِهم وتاريخِهم وعاداتِهم .

وتجرّأ فكتَبَ آراءَه فى الشّعَراءِ والعُلَماءِ والأُدباءِ ، وبيْنَهم أساتِذَةٌ لهُ وأصدِقَاء .

وتجرّأ فكتَبَ فى عِلْمِ الكَلَام (التّوْحِيد) ، وشرَح

بإخلاصٍ آراءَ صديقه ، مفكر فلسفة الاعتزالِ الرائدِ : « إبراهيمُ بن سيّار النظّام » .

وكانَ الجاحظ حَذِراً فيما يكتُبُه ، يُغطّي صَراحتَه بخفَّةِ ظلّهِ ، وصِدْقَه بالنوادِرِ والفكاهات ، ويذكُر الشيءَ ونقيضه . وصار شِعارُ أبى عثمان : « عِشْ كما تُريدُ أنْتَ ، وفكرّ كما تُريدُ أنْتَ ، لا كَما يُريدُكَ النّاس ، وتَفنّن لكىْ لاَ تُغْضِبَ بصَراحَتِك أحداً من النّاسِ » .

دعوة إلى بغداد

وحدَثَت نكبَةُ البَرامِكَةِ ، وقد بَلَغَ « الجاحظ » من العمرِ سبعاً وعشرينَ سنَة وروعَتَهْ أخبارُها ، وشعَر بالأسَى لمصرَع صديقه الأميرِ « عبدِ الملكِ بنِ صالحٍ الهاشِمىّ » بسبب صِلَته بالبَرامِكَة ، ثم جاءَتْ وفاة « هارون الرشيد » وقد بَلَغ من العمرِ ثَلاثاً وثلاثين سنة ، وتلاحقَت إثر وفاتِه ، صِراعَات دَامِيةٌ ، بينَ الأخويْن : « الأمِينِ » و « المأمُون » دامَتْ سِتّ سَنَواتٍ ، خَلاَ بعْدَها وجْهُ الخِلاَفَةِ للمأمُون ، وقد بلَغَ الجاحِظُ من العمرِ

ثماني وثَلاثِين سنَة وهو مُقِيم بالبَصْرَة ، يلازِمُها ولا يُغادرهَا إلا لحضُورِ سُوقِ المِرْبَد الأَدَبِى ، كُلمّا أقِيمَ وانْعَقَد .

وكانَ الخَليفةُ « المأمون » محباً وراعِياً للثّقافةِ والأَدَب ، والفكرِ والعِلمِ ، ومنحازاً إلى فِكْرِ المعتزِلة ، مَثَلَ « النظّام » ، و« واصِلِ بنِ عَطَاءِ » ، ومن أجْلِ هذا الحُبّ أنْشأَ « بَيْت الحِكْمِةِ » ، ليكونَ مكتَبَة « بغداد » بل مكتَبَةَ الثقافَة الإِسلامية الأُولى ، ومكتَبَةً للدّنيا بأسْرِها ، وجَمَع فِيها كل مّا أُلِّف بالعربية ، أو تُرْجِمَ إليها ، فى عهْدِ أبيه « هارون الرشيد » وفى عَهْدِ جدِّه « أبو جعفر المنصور » وبينها كانتْ كُتُب : « أَبو عُثمان الجاحِظ » .

وبَهرَتْ كُتُبُ الجاحِظ الخليفَةَ المأمُون ، فأرسَل إليه ، بمنْ يصحبُه معززاً مكرّماً من البصْرةِ إلى بغْدَاد ، وكان « الجاحِظُ » قد بلَغ من العمرِ أربعاً وأربَعِين سنة .

حرارة اللقاء

دخَل الجاحِظُ على « المأمونِ » فى قَصْر الخُلْد ، فرآهُ جالساً

على سريرٍ من الأبنُوس ، مُوشًّى بالذّهب ، ووجدَ بجانبه نُسَخاً من كُتُبه هُوَ ورَسَائِله بالعَشَرات ، وقالَ له « المأمون » وهو يُجْلسه بجانِبه :

— لم أعرفْ حقاً كيْفَ يحْيَا النّاسُ فى زَمَانِنا ، وفيمَ يفكرون ، إلامِنْ كُتُبك يا أبَا عُثْمان .

وتحدّث « الجاحِظ » إلى « المأمُون » ، فأضْحَكه حيناً ، وأحزَنه حيناً ، وأثَارَ دهْشَتَه حِيناً ، من غرائِبِ ما يروِيهِ ، وسَعَةِ ما يعرِفُه ، فقال له :

— ها أنْتَ يا أبَا عُثْمان ترْتَفِعُ فى عَيْني فوْقَ كُتُبك كُلِّها . فأنْتَ تَكْتُبُ كما تَتَحدَّثُ ، وتَتَحدَّث كما تَكْتُبُ ، وفى الحالَيْنِ تُفيدُ وتُمْتِع .

وأمرَ « المأمُون » فُرتِّبَ للجاحِظِ عطاءٌ شهرِيٌّ من المالِ ، وأُنْزِلَ ضيفًا على وزيره القاضِى « أحمد بن دؤاد » إلى أن يستفِيدَ منه فى ديوان من دوَاوِين الخِلافَة ، ولم يعْصَ الجاحظ للمأمون أمراً ، بعد حَرارَة هَذا اللّقاء .

لكنّ الفِتَنَ نشِبَتْ من جدِيدٍ فى فارِس والعِراق ، وشُغِلَ « المأمُونُ » بأمرِها عن « الجاحِظ » وخَشِيَ « الجاحِظُ » على نفسِه من شَرَرِ تِلْكِ الفِتن ، وأعَاصِيرِ السياسة ، فَسَارَع بالعَوْدَة إلى البَصْرَة ، غير حزينٍ عَلَى شىءٍ .

رئيس الديوان

عادَتِ الأمُورُ إلى الاستقْرارِ ، بعْدَ عامين ، وأرسَل « المأمون » فى طَلَب الجاحظ مرةً أُخرَى ، فغادَرَ البصرة إلى بغدادَ . وفوجِىء « الجاحِظُ » بالمأمون يعهد إليه بديون الرسائل (إدارة الرسائل من الخليفة لولاته ولرؤساء الدول الأخرى) وأمره بحملِ مسْئُولِيّة هذا الدِّيوان من غدِه .

وتسلّمَ الجاحِظ وظِيفَته الجدِيدَة ، خلَفاً للكَاتِبِ : « سهْل بنُ هارُون » ووجدَ الدِّيوان مزدَحِما بكُتَّابٍ فَارِغِى العُقُول ، أنِيقى الثِّيَاب ، ظُرَفاء الحدِيثِ . وعَبثاً حاوَل الجاحظ التودُّد إليهم ، بالممازَحة وروايَةِ النَّوادِر ، بل لقد سَمِعَهُم وهم يتهامَسُون عن وَضَاعَةِ أصْلِه ، وقُبْحِ شَكْلِه ، وبَيْنهم كان الكاتِبُ

« أحمد بن عبد الوهاب » يقودُ ويوجِّه حَمْلَةَ السُّخرية مِنه .

وذهَب « الجاحظ » إلَى المأمُون بعِد أيامٍ قليلة ، وطلَب منه إعفاءَه من هذَا المنصِبِ المضَيِّع لوقْت مِثْله ، بل وقدّم إليه رسَالَةً نثريّة تحمِلُ عنوان « التربيعُ والتدْوِير » فى هجاء « ابن عبد الوهاب » وقَرأها المأمُون ، وضحِك كثيراً لما بِها من هِجاءِ ساخر ، ونقْدٍ لاذِع . وقال المأمُون للجاحِظ :

— سخّرْتَ النّثر للهجاءِ لأولِ مرة ، وعهدُنا فى الهِجاءِ أن يكُونَ شِعْراً .

وعظُم قدْرُ « الجاحِظ » فى نَظرِ « المأمُون » ، وأعفاه من منصبِه ، وأمرَه بالبقَاءِ قرِيباً منه فى بغدَاد ، يكتُب ما يشاء ، وفيمَا يشاء ، وعما يَشاء ، آمِنا إلى حِمايتِه له ، ورضَاه عنه ، ووصَلَه « المأمون » بعطايَاه وهَدَاياه ، وآثَره بحضُورِ مجالِسه مع العُلَماء والأدَباء .

واختَارَ الجاحظ صُحْبَةَ الوزير القاضِي « أحمد بن دؤاد » ليكُون كافِلَه وراعِيه ، فى عواصِف السِّياسَة ، وبين مطامِعِ الأُدَباءِ ومطامِحِ العُلماءِ .

خير معلم

فى بغْداد أنْجز الجاحظ كتابيه الهامين : « المحاسِن والأَضْدَاد » و : « البَيَان والتبْيين » وأهْدَى ثانيهما إلى صدِيقه وراعِيه القاضى « أحمد بن دؤاد » وكان فى أرْبعَةِ أجْزاء .

وقرأ « ابن دؤاد » الخبِيرُ بعلُومِ اللّغَةِ والدّين بيان « الجاحظ » وراعَه النثْرُ الْفَنّى فى هذَا الكتاب ، وحُسْنُ اختيارَاته ، وبدِيع نقْدِه ، وثراؤه اللّغوىّ والأَدبى الفذّ .

كانَ الكِتابُ يضمُّ نماذِجَ مُختارَةً فى الأدَبِ والإِنْشاء ، ويتحدَّثُ عن صُنُوفِ (أنواع) البَيان ، وعن السَّجْع ، وعنِ الشِّعر والشّعراءِ ، وعن أحاديث رسُول الله ، وعن الخُطَبِ والخُطَباءِ ، ويروى أخبارَ النُّسَّاكِ (المنقطعون للعبادة) والزهّادِ ، ويسُوق العدِيدَ من مواضِعِ اللّحْن (التحريف) فى اللّغَة ، وينقُدُ مذْهَب الشّعُوبيّة فى طَعْنِهم على خُطَباء العَرب ، وبِمنطِقِ فلاسِفةِ الاعتزال (فلاسفة يحكِّمون العقل فى فهم الدين) .

وقالَ ابنُ دؤاد للجاحِظ حين رآه :

— كُنْتُ فى حَيْرةٍ من أمْرِى : كيْفَ أعلّمُ وَلدِى مَنطِق العقل ، وفُنونَ القَوْل والأدَبِ ، فجاءَ كتابُك يا أبَا عُثمانَ ، ليُنْقِذَنِى من هذِه الحَيْرة . فهو خيرُ مُعلِّم لناشِئة الشبّاب .

سباق مع الزمن

وفي بغْدَاد ، أقامَ الجاحظُ مُمتّعاً بسَنَوات عُمْره ، يُؤلّفُ الكُتُبَ والرّسائِل ، ويُناظِرُ العُلماءَ ويُعلّمُ الطّلاب ، ويَلْقى معاصِريه من الكُتّاب :« سهلُ بنُ هارونَ » و« هُشام بنُ محمدٍ الكَلْبى » و« وأبو عبيدَة بنُ المثنّى » و« وأبو الحَسَنَ المدائِنىّ » ويودِّع بين عامٍ وآخر مَع المودّعِين ، هُشاماً ، ثم أبَا عبيدة ، ثم أبَا الحسِين ، ثم سهْلَ بن هارُون ، خِلالَ عشْرِ سَنواتٍ ، ويشْعُرُ بالغَيْرة فى وَدَاعهم ، فقد ترَكَ كلُّ مِنهم وراءَه للناس عشراتِ الكُتُب ، فقد بلغَتْ كُتُبُ المدائِنِىّ ورَسائله مائتَين وأربعينَ كتاباً ورِسَالة ، ووضَعَ الجاحِظُ لنفسِه هدَفاً أن يُنجز من المؤلّفاتِ ، ما لم ينجز مثله أحد من الكُتّاب ، عدَدَا وقِيمَة ،

وقد بدأ يشعُر أنه فى سِبَاقٍ مَعَ الزّمن .

وكانَ الجاحظ قد بلغَ من العمرِ ثمانية وخمسِين عاما ، حينَ صحبَه « المأمُون » كعَادَتِه فى أسْفَارِه ، طلباً للأُنْسِ بِهِ ، والاستِماعِ إليه . وفى قَرْيةٍ بالقُرْبِ من مدينة « طرسُوس » ، ودّع « المأمُون » دُنيا النّاسِ ، وبَكَاه « الجاحظ » مع الباكين لِحزْمِه وحُبّه للعِلْمِ والعُلماءِ .

وعادَ « الجاحظ » إلى بغداد ، وبايَع مع المباعِين للخلِيفَة المعتصِم شَقِيق المأمُون ، وانتقَل معه إلى العَاصِمَةِ الجدِيدَة للدوْلة « سُرّ من رأى » (سامراء) وظلّ الوزيرُ القاضى ابن دؤاد يكفُل الجاحِظَ ويرعَاه .

صديق لدود

طوَالَ السنوات التى عاشها « الجاحظ » فى بغْداد كانَ « النّظامُ » قَرِيباً مِنْهُ ، حمِيمَ الصَّدَاقَةِ لَه ، لكنّ « النّظامَ » فى « سُرّ مَنْ رَأى » بَدَأ يجْفُو صاحِبَه ، وصارَ كِلاهُما يشكُو الآخَرَ للنّاس ، فقد صَارَ « النَّظّام » يغارُ من التِفَافِ النّاس حَوْل

« الجاحظ » ، ومِن سُرْعَةِ لسانِ « الجاحِظ » فى المُناقشَة ، ونَصاعَةِ بَيانِه ، وقدرَته الباهرةِ على التأْليف . ونأى كِلاهُما عن صاحِبِه .

وفى « سُرّ من رَأى » لم يعُدْ « ابنُ دُؤاد » الوزيرَ المقربَ من المعتصِمِ مثلَ وزيرِه الآخَرِ « ابنِ الزيات » . ونَصح « ابنُ دؤاد » الجاحِظَ بالقُربِ من « ابْن الزيات » خوْفاً عليهِ من الكَيْدِ له ، والتَّنْكيلِ بِهِ ، ووجد « الجَاحِظ » أنْ لاَ مَفرَ لهُ من الامتِثال كارِها لنُصْحِ « ابنِ دُؤاد » ، وشعَرَ بالقَهْرِ لعجْزِه حتى عن العوْدَة إلى البَصْرة ، والبُعْدِ عن صِراعاتِ الحَاشِية من رِجَال « المعتصم » كان « ابنُ الزيات » هو الآخَرُ كاتِباً وعالِماً ، وأدِيباً وشاعِراً ، وسياسيا ماهِراً ، وكان متقلّبَ الهوَى ، حادَّ المِزاج ، يُصارِعُ شُعورَه بالغَيْرةِ من « الجاحظ » ، سرِيع الرِّضا ، سرِيعَ الغَضَب ، ويبلُغ بِهِ غضبُه حَدَّ الحِقْدِ المدمِّر .

وتودَّد « الجاحظ » إلى ابن الزيّات يُثني عليه بالمدِيح ، ويلاطِفه فى الحديث متفادِياً بمهارَة غيرته وغضَبه ، وتقلُّبَ مِزاجه وحِدّته ، حَرصاً على عَدم مُناصرَته على خُصومه ، فَينَال

كَراهِيتَهُمْ ، وتربُّصَهم به ، حين تَتغَيّر الأَحْوال .

وعكَفَ « الجاحِظُ » على تأْليفِ كِتَابٍ مَوْسُوعِيّ آخر ، عن عَالمِ « الحَيَوان » ومِنَ الحيَوان : الطّيور ، والحَشَرَاتُ ، والهَوامّ ، وناسٌ من بَنيِ الانْسَان ، ليرفَعَهُ ويُهدِيه إلى صَدِيقهِ اللّدُود : « ابنُ الزيات » .

ينابيع

كانَ اليُونانِيونَ أسبَق مِن العَرب فى الكِتَابَةِ عن « الحَيَوان » ، كَتَبَ عنه « ديمقريطس » و« أرسْطو » ، وقد نقَل « ابْنُ البطريق » كتاب أرسْطُو « الحَيَوان » إلى العَربية . وفى زَمن « الجاحظ » وقبله كانَ هُناك عُلَماءٌ آخرُون من العَرب ، كتَبُوا عن « الحيوان » عن الإبل ، والخيلِ ، والوحُوشِ ، والطيْرِ ، والنحلِ ، والحشراتِ . وبينهم كان : السِّجِسْتَانِى ، والأَصْمعى ، وابْنُ الأعرابى ، وابْنُ الكَلْبى ، والنّضر بنُ شُمَيل . لكِنّ كُتبَهم كانَتْ فى جَوْهَرِهَا كُتُباً لُغَويّةً ، لم تُؤَلّف للعِلْم ، ولم تَبحثْ فى طَبَائعِ الحَيْوان ، وغَرائِزِه وسُلُوكِه ، وأحْواله

وعَاداته ، ولذلك جعَلَ « الجاحظ » هَمَّهُ الأكْبر أنْ يكونَ كِتَابُه كِتَاباً عربيّاً جامِعاً ، فى « عِلْم الحيَوان » .

ولأنّ « الجاحظ » كانَ كاتِباً وصَاحِبَ مدرَسَةٍ فى النّثر الفنّى ، فقدَ جعل بيْنَ منابِعه فى التّأليف ، نَبْعَ القُرْآن وحدِيثَ الرّسُول ، ونَبع الشّعْرِ العَربى ، وبخاصّةٍ ، الشّعْرَ البدوِىّ ، الذى قاربَتْ معارفُه عَنِ الحَيوانِ معارِفَ الفلاسِفَةِ والأطِبّاء ، ونَبعَ كِتَابِ « الحيَوانِ » لأرسطو ، ونَبْعَ المنازَعات الكلاميّةِ لعُلماءِ الكلام ، عن خَلْقِ الله ، ونَبْعَ الخبْرَة الشخصِيّة عن عَالَم الحَيوانَ ، التى مَرّ بِها فى أسْفاره بيْن البدْوِ والحَضَر ، وفى الصّحَارَى والودْيان ، والتى استقَاها بأسْئِلَته ، ومخالَطاته ، للصيادِين والحُواة ، والمزَارعين والملاّحِين ، وبَدْوِ الصّحَارى فى المَفازاتِ والفَلَوات ، وعُلَماء الجُغرافيا والتّاريخِ والأجْناس والأعْرابِ والأطِبّاءِ .

الضفدع والضبّ

وقلّب « ابنُ الزيات » ، صَفَحَاتِ مُجَلّداتِ الجاحِظ عن

« الحيوان » ، وتوقف « ابنُ الزّيات » عندما كتبه الجاحِظ عن الضّفادِع ، وأخَذَ يَقْرأ :

« وأنا ذاكِر من شأْنِ الضِّفْدع من القَوْلِ ما يحضرُ مِثْلِى : فالضِّفْدَعُ لايصِيح ولايُمْكِنهُ الصِّيَاحُ حتّى يُدْخِلَ حَنَكَهُ الأسْفَلَ فى الماءِ ، فإذَا صارَ فِيهِ بعضُ الماءِ صَاح ، ولذلِكَ لا تسمَعُ للضفّادِع نقيقاً ، إذا كُنّ خارِجَاتٍ مِنَ الماءِ . والضفّادِع تَنِقّ ، فإذا أبصَرتِ النارَ أمْسَكَتْ . والضفّادِعُ نَراها كِباراً وصِغاراً فى عدد لا يُحْصَى فى غِبِّ (أعقاب) المطرِ ، إذا كانَ المطرُ

ديمَةً (دائماً) لا ينقطع ، ثم نَجدهُا فى المواضعِ التى لَيْسَ بقُربها بحرٌ ولا نَهر ، ولاحَوْضٌ ولاغدِير ، ولاوَادٍ ولابير ، وفى الأرْضِ الجرْدَاء وفوْقَ المسَاجِد ، حتّى زعَمَ كثِير من أهْل الجِسَارَة عَلَى العُلَماءِ أنها كَانَتْ فى السَّحاب . والضّفَادِع من الخلقِ الذى لاعِظَامَ له . وتزعُمُ الأعْرَاب أن الضّفْدَع كانَ ذَا ذَنَبٍ ، وأن الضَّبَ سَلَبَه إيّاه ، وذلِكَ فى خُرَافَةٍ من خُرَافاتِ الأعْراب . ويَقُولُ آخرُون إن الضّفْدَعَ إذا كانَ صغِيراً كان ذَا ذَنَبٍ فإذا خَرَجَتْ لهُ يَدَانِ أو رِجْلاَن سَقَطَ . والأُسْدُ فى مواردِ الماءِ تأكُلُ الضفادعَ أكلاً شَدِيداً . والضّفَادِع تعظُم (تكْبر حجماً) ولا تَسْمن . وفى سَوَاحِل فَارِسَ ناسٌ يأكُلونَها » .

الشيخ والعصفور

وقلّب « ابن الزيات » صفحاتِ الكِتاب وقَرأ هذه الحِكَايَة عن « الشيخ والعصفور » :

« وفِى المثَل : أن شَيْخاً نَصَبَ للعَصَافِير فخاً ، فارتَبْنَ

(شَككْنَ) به وبالفَخّ ، وضَرَبَه البرد فكلّما مَشَى إلى الْفَخّ ، وقد انَضمّ الفخّ على عُصْفُور ، قَبَض الشّيخ عليه ، ودَقّ (كسَر) جَنَاحَه ، وألقاه فى وِعائِه ودمَعَت عَيْنَاه مما يصُكُّ (يضرِب) وجْهَه من بَرْد الشّمَال (ريح الشمال) فتوامَرَت (تشاوَرَت)العَصافِيرُ بأمْرِه ، وقُلْنَ : لا بَأْسَ عَلَيْكُن . فإنه شيْخٌ صالِحٌ رحيمٌ رقِيقُ الدّمْعَةِ . فقَالَ عُصْفُور منها : « لا تَنْظُروا إلى دُمُوعِ عَيْنَيْه ، ولَكِن : انظُروا إلى صُنْعُ يَدَيْه » ... » .

ووجَد « ابن الزيات » نَفْسَه يَضْحَك من قَلْبه ، وقَال للجاحِظُ :

ــ عجيبُ أمرُ كتابَك هذا يا أَبا عُثْمان جَمَعْتَ فِيهِ فى آنٍ وَاحِدٍ بَيْنَ العِلْمِ والأدَب ، والحقيقَة والْخيَال . ولسَوْف تَبْقَى ذِكْرَاك على الأيّام بهذَا الكِتَاب ، ويبْقَى اسْمِى مع اسْمِك ، بإهدائه إلَىّ فطِبْ نَفْسا يا أَبا عُثْمان ، فلنْ يَصِلَ إليْكَ مِنّى سُوء .

عودة الخائف

ومات « المعتصم » وجاءَ « الواثق » خليفَة بعدَه وكان « الجاحظ » قد بَلَغ من العمر ثمانِي وستِّين سَنَة . ووَاصل « ابنُ الزيات » البطْشَ بخصُومه ، « والجاحظ » يَعِظُه فلا يتّعِظ ، حتى وقَعتِ الجفوَة بيْنهما ، فاستَأْذَنَه « الجاحظُ » فى العَوْدَةِ إلى البصْرةِ ، فأذِن له ، فغادَرَ « سُرَّ من رَأى » بعْدَ أيّام ، مودِّعاً صدِيقَه : « ابْن دُؤاد » .

وفى البصْرة كانَت قد صارَتْ للجاحظ ضيْعَة ، اسْمُها : « الجاحِظية » . وفى البصرة جاءَه الخَبرُ بوفَاةِ صدِيقِهِ « النَّظّامُ » فبكاهُ وحيداً فى الليل . وفى البصْرةِ لم يشعُرِ الجاحِظُ بالأمن من « ابن الزّيّات » ، ولذلِكَ عَكَفَ على تأْلِيف كتابِ عن « البُخَلاء » وكان قد بَلَغَ من العمر ثلاثاً وسبعِينَ سنَةَ ، وكَتَبَ عليه إهداءً إلى الوزير « ابنِ الزيّات » ، وحمَلَه معَهُ من البصرة ، إلى « سُر مَن رأى » .

ودَخَلَ « الجاحِظ » المدينةَ راجياً وخَائِفاً فوجَدَ « الوَاثِق » قد

ودّعَ الدّنْيا ، وولِىَ الأمرَ من بعدِه الخليفةُ « المتوكّل » ، الذى أبقَى « ابن الزياتِ » وزيراً له إلى حِين ، وكان حانِقاً علَيْه ، لمعارضَتِه فى أنْ يكُونَ خلِيفةً .

وتَقبل « ابْن الزّيَات » كتَابَ الجاحظ ، وباسَطَه وأرْضَاه . وقال له : إن بَيْنِى وبَيْن المتوكّل من الأسْبابِ ما يكفِى لقَتْل أُمّة ، « وابنُ دؤاد » مَعَه الآن يدبّر لهُ مكِيدّة ضِدّى ، فهو الآخَرُ يكرَهُنِى ويغارُ مِنِّى . ونصحه الجاحظ بالانسحَاب من الوزَارَة ، فقَاَل لهُ باستِهَانَة :

— دعْنا نعِش يَوْمَنا يا أَبا عثمان . ولْنَقرأ معاً كِتَابَك « البخلاء » .

نقض الطِّبّ

فى اليَوْمَ الأَرْبعين من هَذَا اللقاء ، دخَل الجُنْدُ علّى « ابن الزّيات » ، وقَبَضُوا عليه ، ونَهبُوا قَصْرَه . وأفْلَح « الجاحِظُ » فى التسلُّل والفِرَار ، وقَفَزَ من فَوْق سُورِ القَصْر فالتَوَتْ قَدَمُه ، وسارَعَ بالفِرَارِمن « سُرَّ مَنْ رَأى » فى ظَلَامِ اللّيْل ، وقد دَبَّ

فى نفسِه الخَوْفُ حتّى من « ابْنِ دُؤاد » ولكنّ الجُنْدَ أدْرَكُوه فى الطَرِيق ، وحملُوه مقيّدَ القَدمَيْن إلى صدِيقِه القدِيم ، فأمَر بكسْرِ قيوده ، وصَحبَه الخدَم إلى الحمّامَ فاغتسَل ، وعادَ إلى مجلِس « ابن دؤاد » وقد ارتَدَى ثوباً جدِيداً ، ولبِس خُفّاً أنيقاً ، وأجلَسَه القاضِى بجانِبه ، وقالَ له :

ـــ الآن أعِد إليْنا أحادِيثَكَ الحُلْوة يا أبَا عُثْمانَ .

وبقِىَ « الجاحِظ» فى رِعَاية « ابنِ دُؤَاد » إلى أنْ أصابَه مَرَض « الفالج » (الشّلل النصفى) ولازَم سرِير مَرَضِه الأخِير . وظلّ « الجاحِظ» يزُورُه فى مَرَضِه الطّوِيل ، وبدأ « ابن دُؤَاد » يشكُو من الطِّبّ ، وعَجْزَ الأَطِبّاءِ عن عِلاَجِه .

ولِكَىْ يُسَرِّىَ « الجاحِظ» عن صَدِيقه ، ألّف لهُ كِتاباً أهْدَاهُ إليْه ، وكأنّه كان يعبّر فيه عن حَالِه ، وجَعَل عنوانه : « نقْضُ الطِّبّ » تحدّث فيه عن قُصُورِ الطّبّ فى زَمَانِه ، وعَجزِ الأطِبّاء وسَرْدَ الحِكَايَاتِ والرّوَايَاتِ .

وحَمل « الجاحِظ» الكتابَ إلى صدِيقه ، وجلَسَ بجانبه يقْرَأ

لَهُ فى كتَابِه ، ويضْحَكُ « ابنِ دَؤاد » من نوادره عن الطِّبّ والأَطِبّاء .

بلغ « الجاحِظ» من العمر خمساً وثمانِين سَنَة ، وبدَأ يشعُرُ بدَاءِ « النِّقْرِس » يسْرِى فى قَدمِه وسَاقِه ، فاستَأْذَن صدِيقَه « ابن دُؤاد » ليستَرِيحَ فى مزرعتِه « الجاحِظية » بالبصرَة . وبعد عامَيْن توالت أحْدَاث مفجِعة على « الجاحِظ » .

أُصِيبَ « الجاحِظ » بمرض الفالج ، وجاءتْه الأَخبارُ بوفَاةِ

صديقه « ابنِ دؤاد » ومصرعِ الخليفة المتوكل على يَدِ حُراسِه من الأتْراك ، ولازَم « الجاحِظ » غُرْفَةَ نَومِه ، وكانَ يتردّدُ عليْه لخِدْمَتِه والقِراءةِ لَه ، وكتابة ما يمليه عليه ابن أخته « يمُوت » وعاشَ تِسْعَ سَنَواتٍ ، إلى أن بلَغَ الخامِسَةَ والتِّسْعِين من عمرِه ، فى عهد الخَليفَة المعتز .

منارة مضيئة

كانَتِ الجيُوشُ المسلمة الجرارَة قد تضَاءَلت فى زَمَن « الجاحِظ » لكنّ البحّارَةَ المغامِرين قد نجحُوا فى كسْبِ أَراضى « برُوفانْس » وسَواحِل إيطاليا ، والأناضُول ، وجزيرَتى « صقلية » و« كريت » وعادتِ الجزيرةُ العربيّة إلى حالِها قَبْلَ الإِسْلاَم . يتقاسَمُها بنُو زياد فى اليَمن ، وبنُو يعْفر والجلنديّون فى الجنوب ، والطولونيون فى الغرب ، مثلَما تقَاسَم الأدارِسَة والأغالبة والطّولُونيّون الشّمالَ الإفريقى ، وآل حُكمُ ما وَراء القوقاز إلى بَنِى « سَاج » وحُكْمُ ما وَراءَ النّهرِ إلى بنى « أَسَد » وخضَعَ الشّام لِلْحُكمِ الطّولُونى والحَمْدَانِى .

ولكنّ الثّقافَةَ العَربِية الإِسْلاَمية كانتْ قد ازْدَهَرَت فى القرن الميلاَدى التاسع ازدِهَاراًعجيباً فاقَ كل حد ، وتفوقت ، برغم التمزّق السياسى فى جسم الدولة العباسية ، على كل الثقافات المنافسة لها فى زمانها بجهود المترجمين والمفكرين ذوى الأصالَةِ والابتكار ، من المسلمين والوَثَنِيِّينَ والنّسْطُورِيّين واليَهودِ والفرْسِ والأتْراك . ودُوّنَتْ مُؤَلّفَات عربيّة مشهُورَة فى كلِّ العُلُوم الطبيعية والرّياضيّة ، والعقْليةِّ واللسانية ، والدّينية والاجْتمَاعِية ، وكانَتْ بغداد أزهى المنَارات المضِيئة ، تُرسِلُ أشِعّتَهَا فى كلّ اتّجاه ، وبخاصّة فى جنُوبِ أُورُوبا . وكانَ الوافِدُون على مَدائِنِ المسلمِين من التجّارِ والوُفُود ، يقفُونَ مَبْهورِينَ أَمَامَ ازْدِهَارِ الفُنُون فى أرْجاءِ العَالَم الإِسلامى ، ويرَوْنَ عالماً زَاخِراً بالعُلماءِ الموسُوعِيين ، من أمثال : الخُوارَزمى ، والبَتّانى ، والرّازِى ، واليَعْقُوبى ، والكِنْدِى ، والشافِعى ، وابنِ حنبَلَ ، وبالكُتّاب الذينَ يقيمُونَ الجُسور بينَ الدّين والفَلْسَفة والعِلْم والأدب ، والصّفْوَة والعَامّة من أمْثالِ « أبى عثمان الجاحِظ » .

الوداع

جاءَتِ الطريقَةُ التى ودّعَ بها « الجاحِظَ » دُنْيا الناسِ ، مُفاجئةً لأهْلِ البصْرةِ . كانَ « الجاحِظ » وحِيداً فى غُرْفَته ، حين زَحَف إلى قاعةٍ من قاعاتِ كُتُبه ، فى قَصْره الفسِيح . وتحامَل « الجاحظ » على نفْسِه جالِسا ، وشَبَّ متكِئاً على الجدَار ، ليصِلَ إلى رَفٍّ من رُفُوفِ كُتُبه ، فانهارَتْ بجذْبه ، فَوْقه ، الرفوفُ والكُتبُ ، فلَفَظَ أنْفاسَه بينها .

ولم يَبْقَ من حديثٍ لأهلِ البصْرَة ، إلا عَن فَضْلِ الجاحظ ، وعلمِه وفكرِه وأدبِه ، وساروا جميعاً فى وَدَاعه إلى مرقَدِه الأخِير .

وفرَغ الوراقون لتصنيف كُتب للجاحِظ ، بلَغ عَددُها ثلاثُمائةً وخمْسين كتاباً ورسَالة ، فى : الفَلْسفَة ، والاعتزال ، والدّين والسّياسة ، والاقتصَاد ، والتارِيخ ، والجُغرافْيا ، والطبِيعيّات ، والرّياضيات ، والعصَبية ، وتأثير البيئة ، والاجتماعَ ، والأخلاقِ ، والحيوانِ ، والنباتِ ، والأدبِ . وفى

ذِرْوتها كانت كتُبه الخوالد : البَيانُ والتبْيين ، والحيوانُ ، والبُخَلاء ، والمحاسِنُ والأضْدَاد .

ومنْذُ ذلِك الحِين ، ظلّ اسمُ « الجاحظ » وأدبُه وعلمُه حياً ، وظلّت مؤلفاتُه الباقِيةَ تُطبَعُ إلى يومِنا ، وبيْنها كُتُبٌ لم يؤلّفها قط ، نسَبَها إليه الورّاقُون ، طلبا لِرَواجها بعدَ عصْرِه . ولا تَزال الكُتُبُ والرّسائِل تُؤلّف إلى يَوْمِنا عن عمِيد كُتّابِ العرَبيَة فى كلّ العصور : أبو عثمانَ الجاحِظ ، ولا يَزال العلماءُ الميسِّرون لِلعلْم ، يحتذُون (يحاكُون) أسْلُوبَه العِلْمِىّ المتأدِّب ، الذى تَتساوَى فيهِ ألفاظُه ومَعَانِيه .

•

فى عامِ مائةٍ وخمسينَ هجريّة ، سبعمائةٍ وخمسةٍ وسبعينَ ميلادِيّة كانَ ميلادُ : أبو عثمان عمْرو بنُ بحْرٍ بن محبوبٍ الجاحِظ ، وفى عامِ مائتَينِ وخمسةٍ هجرية ، ثمانمائةٍ وتسعةٍ وستِّينَ ميلادِيّة كانَتْ وفَاته .

ولعلَّ الأحْياءَ من كُتّابِ العَرِبيّة وعُلَمائِها ، يحتَفِلُونَ بذكرى

الجاحِظ ، فى خِتام عقدٍ من العُقودِ المئوية لميلادِه أو وفاته ، فهى ذكرى أدِيبٍ عالم ، أو عَالِمٍ أدِيب ، مَلأ سَمْع الدُّنيا وبَصرَها ، فى زمَانِه وبعد زمَانه ، ذكرى ندُرَ أن يحظى بمثْلِ خُلُودِها سِوَاه ، بين العلَماءِ والأُدَباء ، فى كلِّ اللّغَات .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩١ / ٣٨٧٣

مطابع الاهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء العرب

١٧

الجاحظ

عالم أديب . عاش فى القرنين الميلاديين الثامن والتاسع . ومارس الكتابة العلمية والأدبية والفلسفية . وترك وراءه ثلاثمائة وخمسين كتاباً ورسالة فى كل علوم زمانه . وابتكر للعربية أسلوباً فريداً فى النثر الفنى المرسل . ومزج فى كتاباته بين العلم والدين والفلسفة والأدب . وألف كتاباً قيماً فى علم « الحيوان » كان هو اللبنة الثالثة فى علوم التاريخ الطبيعى بعد كتابات « ديمقريطس » و « أرسطو » فكان به الرائد العربى الأول لعلماء الحيوان ، والتاريخ الطبيعى. إنها قصة تثير الفخار . يقرؤها الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة :

١ - ابن النفيس
٢ - ابن الهيثم
٣ - البيرونى
٤ - جابر بن حيان
٥ - ابن البيطار
٦ - ابن بطوطة
٧ - ابن سينا
٨ - الفارابى
٩ - الخوارزمى
١٠ - الإدريسى
١١ - الدميرى
١٢ - ابن رشد
١٣ - ابن ماجد
١٤ - القزوينى
١٥ - ابن يونس
١٦ - الخازن
١٧ - الجاحظ

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر